مجلة ألف باء

شعب أصيل مجهول الوجود

صحيح ما يقال إن الفنون جنون وهكذا يحصل معي أحيانًا، إذ أن في عام ١٩٩٤ حصل أن ضرب الجنون عقلي بقوة أحدث لوثة فيه، وهذا ما جعلني أقرر أن أكتب مقالة عن ديانتي الصابئة المندائية، التي لا يعرف العراقيون وكذلك الآخرون الكثير عنها، لا بل إن الكثيرون يعرفون أساطير وخرافات وأكاذيب عديدة عنها، يتداولونها ويتناقلوها دون تمحيص، معرفة أو تحقيق.

جاءتني فكرة كتابة هذه المقالة ونشرها في المجلة الملونة اليتيمة والوحيدة في بلد الثروات والموارد الهائلة العراق والتي تُسمى (ألف باء)، بعد أن دار حديث سابق مع أحد زملائي الضباط المهندسين الذي كان يستقل العجلة العسكرية معي، من وإلى معمل تصليح المحركات النفاثة الجوية الذي يقع شمال العاصمة بغداد، وتحديدًا في منطقة التاجي ذات الأهمية الاستراتيجية، حيث تحتضن الكثير من معامل التصليح والتصنيع العسكري، ومستودعات المواد الاحتياطية، ومطار طائرات الهيلكوبتر ومراكز الدفاعات الجوية العراقية وغيرها...

هذا الضابط (ب) كان برتبة عميد (جنرال) ولقد عمل في الملحقية العسكرية في اليابان، كان شخصية دبلوماسية وعسكرية في نفس الوقت، وهذا ما كان يفرض عليه الإلمام بالثقافة والمعرفة ولو بحدها الأدنى في جميع أمور الحياة، بشكل يتميز عن أي شخص عادي، ورغم ذلك كان الجنرال يجهل كثيرًا في معلوماته عن ديانتي، حتى أنه كان يتحدث بأمور بدت خارج المنطق، العقل وقدرة استيعاب المرء للأكاذيب، لكنها في جميع الأحوال كانت متداولة في مجتمعنا

العراقي والعربي، نتيجة للانغلاق الإعلامي طويل الأمد حول ديانتنا، ونتيجة للاستهداف الديني لها بغية تشويه حقائقها ومبادئها.

جلستُ بهدوء بالغ أمسكت قلمي بقوة وأخذت أُفكِّر كيف لي أن أبدأ تحقيق هذه الفكرة، حتى وردت عقلي كلمات أخذت أسطرها على قرطاسي، إلى أن أصبح موضوع لائق بعدة صفحات يُلخص مجمل المعلومات الأساسية عن ديانة الصابئة المندائية التي تمتد جذورها إلى عمق التاريخ في بلد الرافدين العراق، نظرت إلى سطور المقالة قرأتها فأعجبتني وغدوت زاهيًا بالنصر.

صباح يوم مشرق رائق توجهت نحو وزارة الثقافة والإعلام العراقية، التي كانت تقع في بناية حديثة في ضاحية الصالحية قلب بغداد، ما أن تجاوزت عتبة بوابة الوزارة حتى أصبحت أمام موظفي إدارة الاستعلامات الذين بدورهم طلبوا مني بطاقة هويتي، أعطيتهم هويتي العسكرية، قاموا بدرج اسمي ومعلوماتي في دفتر خاص، مجلة ألف باء التي تأسست عام ١٩٦٨ مجلة متنوعة متميزة برصدها العديد من الأخبار السياسية والثقافية والفنية والاجتماعية، الدولية منها والمحلية، وتصدر كل يوم أربعاء من كل أسبوع، وكان مقر المجلة في بناية وزارة الثقافة والإعلام.

لقد حان وقت دخول عالم جديد أكثر انتشار وتأثير وجدية، استقليت مصعد الوزارة نحو مقر المجلة، دخلت إلى مكتب مدير التحرير الذي كان منهمكًا بين تلال الأوراق التي ترقدُ بعشوائية على منضدته العريضة، استقبلني بحفارة طيبة سائلاً عن كيفية مساعدتي، قدمت له نفسي وموضوعي الذي كان بعنوان (الصابئة المندائيون)[1] وأعلمته برغبتي الشديدة بنشره في المجلة.

:- الصابئة المندائيون: أقلية دينية تعيش في العراق والجنوب الغربي من إيران، ورد ذكرهم في القرآن الكريم في ثلاث سور هي الحج والبقرة والمائدة وعدوا من أتباع الديانات التوحيدية، اقترن اسمهم بالنبي يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) مُبارك اسمهُ كأخر نبي ومعلم لهم.

أخذ مدير التحرير الموضوع وتصفح أوراقه ثم سألني عن الأسباب التي دعتني إلى الرغبة في نشره، أجبته أن أبناء طائفتنا هم من أقدم من سكن هذه الأرض وكنت أعني العراق، وهم من سكان البلاد الأصليين، ورغم ذلك فإن العراقيون لا يعرفون عنهم أي شيء، وحدثته قليلاً عن محادثتي مع الجنرال، أخبرته أن المجلة تقوم بدور رائد في نشر الثقافة والتعريف بكثير من الأمور السياسية والاجتماعية وغيرها، وأرى من واجبها كذلك أن تقوم بمهمة التعريف عن شريحة أساسية من المجتمع العراقي.

تسلم مدير التحرير الموضوع وأخبرني أنه لا يستطيع أن يقرر نشره من عدمه, إذ أنه سيقوم بإحالته إلى الخبير الإعلامي للمجلة، الذي سيبدي رأيه فيه، وهذا يتطلب وقت، ولذا يجب عليّ أن أعرج عليه بعد يومين أو أكثر لمعرفة النتيجة، شكرته كثيرًا ومضيت.

كنت أخوض أول تجربة لي في مجال النشر الرسمي العام لذا كنت متلهف وغاية في الشوق لسماع الرأي النهائي لمدير التحرير، بعد مداولته مع خبيره الإعلامي، لهذا كنت أعد الأيام والساعات للحظة اللقاء الحاسم... ما أن حانت لحظة اللقاء إلا وكنت كالجندي في لحظة الانقضاض على غريمه؛ أقف فوق رأس مدير التحرير، الذي ما أن رأني حتى نكس رأسه وطأطأه إلى صدره وقال:

– نحن أسفون، إذ لا نستطيع نشره، لا سيما ونحن نعيش في هذه الأيام الحملة الإيمانية التي يقودها السيد الرئيس القائد صدام حسين.

وأردف محاولاً تخفيف الصدمة عني:

– ولكنك تستطيع أن تكتب لنا في أي مجال آخر مثل عمود رقابة شعبية أو غيره.

صدمني كلامه، أسقطني عن طولي، ولم أعُد أسيطر على كلماتي وقذفته بوابل من المشاعر السلبية قائلاً:

– أنتم يا سيادة مدير التحرير في مجلتكم تقومون بنشر مواضيع عن أقوام بعيدة كل البعد عنا، مثل أقوام المايا في بيرو وغيرهم، وتقومون كذلك بالتعريف عن قبائل غريبة من وسط أحراش وغابات أفريقيا، فكيف تستطيع أن تجعلني أقتنع بألا تقومون بنشر مقالة عن قوم منكم ويعيشون معكم منذ آلاف السنين، هم من أرض الرافدين وبناة حضارته، وهم الأساس، لا بل الأصل منذ نشأة هذا البلد العريق؟.

لا يجوز العبث معهم في مثل هذه الأمور، ولكني كنت حانقًا للغاية، ولذا لم أستطع كبح جماح ثورتي الناعمة وأضفت:

– هل لي بمقابلة السيد رئيس التحرير؟

أجابني:

– نعم ولكن عليك أولاً أن تحدد موعد معه.

كنت أشعر أن شياطين سوداء وحمراء تتقافز حولي لذا تركته وأنا مكسور الخاطر إذ أن هذا الموقف لم أكن أحتمله أو أتوقعه أبدًا، أسير في دهاليز الوزارة ورأسي تدور فيها الكثير من الأسئلة التي لم أجد لها أية إجابات، كيف يمكن لسكان بلد أصليين أن يكونوا مُهمشون ومنسيون لهذه الدرجة، والأسوأ أنّ هذا يحصل وفق إرادة الحكام وليس رغمًا عنهم، ثم ما هذه الحملة الإيمانية التي يقودها رئيس النظام؟ وما علاقتها بموضوع يُعرف عن طائفتنا المندائية التي طالما كانت مُسالمة وديعة مخلصة وبيضاء؟.

أنا أعلم علم اليقين أن رئيس النظام رجل علماني لا يعتبر الدين أساس للحكم، فلماذا يتخذ ويرأس مثل هذه الحملة؟ هل كي يصبغ نفسه بلون ديني جديد كي يستطيع كسب المتدينين من العراقيين، بعد أن ضعفت سلطته إثر هزيمته في حرب الكويت وانهيار منظومته الحديدية؟ هل يريد أن يهيمن حتى على الدين هذه المرة ويستخدمه مَطية لتحقيق أهدافه؟ وأعود وأقول لنفسي وما علاقة الدين بالديكتاتور، أليس هو من قال ويقول إن الوطن للجميع والدين لله، فلماذا

يأتي الآن ويرأس الحملة الدينية الإيمانية التي تتعارض أهدافها مع أهداف نشر موضوعي المتواضع؟.

الدنيا مليئة بالعجائب، يا لغرابة الأشياء، هل علينا أن نستمر بقبول هيمنتهم علينا ومحاولتهم السيطرة على كل شيء؟ هل علينا تقبل نظرتهم الدونية والمرور علينا دون توقف أو تَفكر؟ إنهم يعلمون جيدًا إنهم بهذه الأمور يهينون إنسانيتنا ويلغون وجودنا ويسحقون دورنا التاريخي بكامله.

اتجهت فورًا نحو مكتب رئيس التحرير (أ.أ) تحدثت مع السكرتيرة وحددتُ موعد لاحق معه، سوف لن أستكين وسأواصل تحدي المستحيل كي أستطيع نشر هذه المقالة التي أصبحت هاجسي وهَمي الأول، على أن يكون في هذه المجلة تحديدًا، أسير في أروقة وزارة الثقافة والإعلام التي يبدو أنها أصبحت ضيعة خاصة لفئة عراقية واحدة دون الأقليات الدينية والقومية الأخرى، وأشحذُ تفكيري في كيفية العمل.

يبدو أن القدر قد جمعني بوزارة الثقافة والإعلام وجعلني زائر دائم لها، وهكذا اعتادت قدميّ على تخطي عتبة وزارة الثقافة وهذه المرة اتخذت طريقي مباشرة نحو مكتب رئيس التحرير، استقبلني المدير أفضل استقبال، جلستُ وكان على ما بدا أنه قد علم بجميع تفاصيل الموضوع، حتى أن نسخة من المقالة، وكذلك مطالعة الخبير الإعلامي (ح.ع) كانت تغفو بسلام على منضدته.

رئيس التحرير (أ.أ) واسمه على مُسماه رجل طويل القامة معتدل البدن ذو شعر أسود بالغ اللطافة والابتسام، رفيع الثقافة وحلو المعشر، فورًا ظهرت دماثة أخلاقه فتبادلنا الأحاديث الودية العامة، وظهر أن لديه علاقات واسعة وطيبة مع العديد من الشخصيات المندائية، كما أنه يرتاد بصحبتهم نادي التعارف الخاص بطائفة الصابئة المندائيين والذي يقع في حدائق الزوراء الغناءة في قلب بغداد،

لديه خبرة ومعرفة واسعة بدينهم وعقديتهم، دخلنا في صلب موضوع المقالة حين كررتُ على مسمعه ما قلته في ثورة غضبي إلى مدير تحريره:

– كيف تنشر مجلتكم الموقرة مواضيع عن أناس من أقصى أركان الكون، وعن قبائل وأقوام غريبة وعجيبة في أفريقيا وأسيا وغيرها، ولا تنشر مقالة واحدة عن أناس وطائفة أصيلة من العراق، والذين هم سكان البلاد الأصليين، وأصل وأساس حضارته، شاركوا إخوانهم في سراء حالهم وضراءه، ولم يظهر منهم أي عميل أو خائن أو جاسوس.

كان ينصت لي بهدوء وعيونه تلتمع إعجابًا بكلامي، يتحين إكمالي الحديث كي يتمكن القول:

– إني أعرفكم جيدًا وأعرف كثيرًا عن دينكم ومبادئكم، وأعلم أنكم أناس طيبون ومسالمون، وأنتم من خيرة البشر، إذ أنكم حريصون وذوي كفاءة مشهودة وتاريخ مُشرف، ولا أبالغ إن قلت إنكم أحسن منا بكثير.

عبارته الأخيرة أدهشتني واستوقفتني كثيرًا وأضاف:

– ولكن يا عزيزي أستاذ عباس لدينا في سياسة المجلة خطوط حمراء كثيرة، وموضوع مقالتك يتخطى هذه الحدود، فلذا أرجو منك تفهم وضعنا لأننا ببساطة لا نستطيع نشر موضوعك بسبب الحملة الإيمانية الجارية، حيث يمكن أن يعتقدوا أن نشر هذه المقالة يُعتبر نوع من أنواع التبشير الديني لديانتكم، رغم أني أعرف جيدًا أن ديانتكم مغلقة وغير تبشيرية.

أطرق رأسه إلى صدره وقال بابتسامة مقهورة:

– أنا أسف أستاذ عباس وأتمنى أن تتقبل الموضوع بروح الفرسان.

وبهذا أنهى الحديث وأطبق بشدة على احتمال قبوله، وبدأ بحديث آخر عن أصدقائه وجلساتهم الممتعة في نادي التعارف، وهذا ما هدأ من روعي قليلاً، تقبلت الموضوع على مضض، ومما ساعدني على ذلك حسن اختياره للكلمات وطريقته المقنعة جدًا وسمو حديثه، شكرته على حُسن الاستقبال والحديث،

رجوته إعادة المقالة لي، وهنا حصل ما لم يكن في الحسبان، لقد حصل خطأ في عملية إعادة المقالة حيث قامت مديرة مكتبه الجميلة بتسليمي أوراق المقالة الأصلية مضافة إليها مطالعة الخبير الإعلامي (ح.ع) دون قصد منها، أخذتها على عجل ومضيت بحال أفضل دون أن أعيدها لها، لا تزال تدهشني الصدفة في كيفية حصولي على الكثير من المعلومات التي تقع بين يَديّ دون أن أسعى لها، بالطبع لا زالت هذه الصفة تلاصقني حتى الآن.

ما أن خرجت من مكتبه وأنا ما زلت في دهاليز الوزارة حتى قرأت كل ما جاء في مطالعة الخبير الإعلامي وهنا كانت المفاجأة، خطرت لي فكرة جهنمية وهي أن أستعين بشخص ذو صيت ونفوذ ويعمل في الوزارة كمستشار لوزير الثقافة والإعلام يمكن أن يُعينني في تحقيق مهمتي التي كادت أن تصبح مستحيلة، حينها سألت أحد الأشخاص عن الشاعر العراقي المندائي عبد الرزاق عبد الواحد فدلني عليه.

ما أن تخطيت نهاية الرواق حتى وقع نظري على مكتب شاعر العراق والعرب الأول عبد الرزاق عبد الواحد، هذا الشاعر الذي اختلف الناس في تقييمه إلى مؤيد وعاشق لمستوى شعره الرفيع، أو كاره حد المُقت لمواقفه التي يعتقدون أنها ترتبط بالنظام الحاكم آنذاك، وخائفًا لا يجرؤ على الإفصاح عن رأيه.

عن بُعد؛ بدا لي المكتب متواضع جدًا ولا يتناسب مع مكانة وسمعة الشاعر الدولية، كان عبارة عن غرفة صغيرة بأثاث لا تبدو عليه علامات الفخامة إطلاقًا، رغم المعانى الكبيرة وعظم العبارات الفخمة التي كان الشاعر يطلقها ويتغنى بها في أشعاره، كان أبو خالد يجلس خلف منضدته منكبًّا على عمله، ما أن سمع صوت أقدامي حتى رفع رأسه مبتسمًا، مددت له يدي فنهض وصافحني بحرارة دون أن يعلم عن شخصيتي، عرفته على الفور عن اسمي وعملي ودِيني فاستقبلني بحفاوة بالغة.

جلستُ على الكرسي الذي يقع على الجهة الأخرى لمنضدته، بعد العديد من عبارات المجاملة وشرب كأس من الشاي العراقي الساخن المطعم بالهيل ذي الرائحة والمذاق الرائعين، أخذت أسرد عليه قصتي الحزينة، كان يستمع لي باهتمام بالغ ساندًا رأسه على أصابع يده اليمنى التي استندت على حافة المنضدة، كان بين الفينة والأخرى يطلق بعض كلمات المزاح مُحاولاً التخفيف عن كاهلي، يبدو أنه قد علم بمدى تأثري لهذا الموقف.

عبد الرزاق عبد الواحد رجل قصير القامة نسبيًا، عريض البدن، حاد الملامح، كان في بداية في عقده السادس على ما أذكر، أسمر اللون وذو شعر أسود كثيف، شاعر من الطراز الأول، ارتبط شعره بالوطن والأرض، واشتهر بطريقة إلقاء فريدة.

أخبرني الشاعر الكبير أن لديه صلات طيبة مع رئيس التحرير ولسوف يحاول معه ويرى ما يمكنه أن يفعل، أخذتنا أحاديث جانبية شيقة كثيرة وتناولنا العديد من المواضيع المختلفة فيما يخص الشأن المندائي وغيره، لحظات وأخذ الشاعر يُسمعني بصوته الجهوري الذي ترتجف كل القلوب وتطرب جميع الأذان له؛ قصيدة كان نظمها سابقًا على عُجالة، في وصف فتاة جميلة دخلت صدفة إلى مكتبه، كانت قصيدة رومانسية رائعة أجاد الشاعر فيها أفضل إجادة، ولشد ما أطربني حتى نسيتُ جميع هموم المقال التي لم تنشر، وبدت لي أنها لن تنشر إطلاقًا، شكرته كثيرًا على حسن استقباله، حديثه ومحاولته المساعدة، اتفقت معه على موعد لاحق ومضيت.

ما أن رميت بجسمي المتعب على مقعد سيارتي المتعبة مثلي حتى كشفت عن الكنز الذي بعثه الله لي مجانًا، قلبت أوراق المطالعة ووجدت أنها قد بحثت موضوع المقال من جميع النواحي الإعلانية والإعلامية والدينية والسياسية، وفي النهاية أوصى الخبير الإعلامي بعدم نشرها في المجلة ولهذا التزم الجميع بتوصياته حرفيًا.

كما أن العبارة القوية التي قالها لي رئيس التحرير استوقفتني كثيرًا، كما قرأتُ عبارة مثيرة أخرى في مطالعة الخبير قد استوقفتني أكثر، لقد كتب الخبير في مطالعته بما يعني أن المقال من الناحية الدينية تأتي في وقت تتعارض فيه مع الحملة الإيمانية رغم سمو ورفعة المبادئ والأخلاق التي يدعو إليها الدين المندائي، والأهم من ذلك فقد كتب الخبير: "لو لم أكن مسلمًا لصِرتُ مندائيًا"،أما من الناحية الإعلامية فإنها تصلح أن تكون بحث يُنشر في مجلة مُتخصصة، وفي الناحية الإعلانية فإنها لا تصلح كونها ليست بذلك.

لهذا كانت مقالتي ضحية بريئة لحملة القائد الإيمانية، وبسببها كانت غير مناسبة للنشر في المجلة الأولى والوحيدة في العراق، وبهذا فقدت في نفسي أي أمل في تنفيذ هدفي رغم وعد الشاعر الكبير ومحاولاته.

أقول بصراحة أنه قد استهوتني فكرة الكتابة في عمود (رقابة شعبية) لاسيما أني أراقب وأتعايش يوميًا مع العديد من المواضيع التي تهم شأن المواطن العادي وتمس حياته العملية، كنتُ أكون في فكري نصوص قصيرة ذات نهايات حادة، وبعد كل ما جرى أخذت أكتب بالفعل بعض منها، وكانت عبارة عن حكايات صغيرة لاذعة ناقدة للأوضاع المعاشية والخدمية المتردية في البلد، وإن أكثر ما شجعني للإقدام على ذلك هو كلام رئيس قسم هذا العمود الذي التقيته بالصدفة في الوزارة ودفعني بقوة.

مرت عدة أيام وأنا بين لُّجة العمل ومَشاق الحياة، بسبب الأحوال الاقتصادية العصيبة التي يمر بها بلدنا بسبب الحصار الاقتصادي الذي فرضته دول العالم المتحضر، مدعومة من منظمة الأمم المتحدة على شعبنا العراقي المظلوم، إلا أن الله دائمًا ما يعطي فرص طيبة في الحياة تجعل الإنسان ينسى همومه ويسعى إلى الحصول على حيز من السعادة خاص به، ولهذا أخذ موضوع الكتابة في مجلة ألف باء حيز كبير في نفسي.

كان صديقي الدكتور(ع.أ) يزورني كل مساء في متجري، نجلس نحتسي الشاي، نتحدث بثقة فائقة عن كل شيء بما فيها نقدنا اللاذع للحكومة والنظام وحتى الرئيس، لقد كنت أثق به كل الثقة لذا كنت أتحدث في حضرته بكل أريحية وانفتاح كما أنه بادلني نفس المشاعر والأحاسيس.

في يوم دعاني صديقي إلى أكاديمية الفنون الجميلة لحضور مناقشة إحدى رسائل الدكتواره لأحد الطلاب، وبينما كُنا ننتظر ساعة بدء المناقشة جلسنا في كافتريا الأساتذة نتجاذب أطراف الحديث برفقة أشهر فناني العراق وأساتذة الفن والإعلام، في وسط هذه الأحاديث والأجواء الرائعة توقفت قربنا امرأة جميلة باسقة القامة في أربعينيات العمر، على وجهها تبدو آثار النعمة بوضوح، وسألت عن الدكتور (ع.أ) فقال لها – أنا هو – ودعاها إلى الجلوس واحتساء قدح من الشاي.

عرَّفت هذه المرأة عن نفسها وأخبرت صديقي أنها تريد أن تتعلم فن كتابة السيناريو، وأنها قد كتبت رواية وتبغي أن تحوِّلها إلى سيناريو فيلم أو مسلسل، اعتذر منها صديقي بلُطفٍ بالغ، إذ أن هذا لا يدخل ضمن اختصاصه العلمي، أخيرًا خضع تحت إلحاحها فما كان منها إلا أن سلمته كُرَّاسَ روايتها كي يحاول مساعدتها بطريقة أو أخرى ومضت إلى وجهتها.

أغلقت محلي في يوم إجازتي من العمل في الجيش، استقليت سيارتي وتوجهت نحو قدري في وزارة الثقافة والإعلام، قاصدًا سعادة مستشار الوزير الشاعر الكبير عبد الرزاق عبد الواحد وشخص آخر، كعادتي سلمت هويتي العسكرية في مدخل الوزارة ودخلت إليها قاصد مكتب مستشار الوزارة.

كان الشاعر ينتظر قدومي رغم أنه كان يحمل أخبارًا غير سارة, ما أن وقعت عينيه عليّ حتى هبّ لتحيتي باسمًا مغتبطًا باللقاء مادًا قلبه قبل يده، أسرني بعواطفه الجياشة وحرارة استقباله، جلسنا نحتسي الشاي ونتحدث عن أحوال طائفتنا مرورًا بظروف البلد العصيبة، ووصولاً إلى موضوع المقال، حتى قال

لي إنه قد تحدث مع رئيس التحرير حول الموضوع ولقد حصل على نفس الإجابة، إذ هناك خطوط حمراء لا يمكن لأحد اجتيازها، هنا بدأ يُهون عليّ ناصحًا إياي بنشرها في مجلة (أفاق مندائية) التي كانت تصدر من قبل مؤسسة طائفة الصابئة المندائيين في بغداد، شكرته كثيرًا وخرجت من مكتبه.

دخل صديقي الدكتور إلى متجري مساءً وكان يحمل تحت إبطه كُرَّاسًا مدرسيًا، وكان ذلك هو قصة تلك السيدة الحسناء التي ظهر أنها أرملة، لما كان صديقي فقد زوجته قبل حين فلقد خطر فورًا على بال كلانا في نفس الوقت فكرة إمكانية زواجهما، أخبرني أنه قلَّب أوراق روايتها ولم يجد فيها شيئًا مثيرًا رغم جمال وإثارة كاتبتها، خطرت لي فكرة الإطلاع على الرواية، طَلَبتُ منه أن يُعيرني إياها لأيام فوافق ودسَّها بين يديَّ، أعتقد جازمًا أن فكرة الزواج منها قد استهوته كثيرًا حتى أخذ يخطِّط لكيفية الاتصال بها هاتفيًا ومحاولة كسب ودها، حيث إنها قد تركت رقم هاتفها المنزلي لديه تحسبًا في حال حاجته لها فيما يخص موضوع سيناريو القصة.

يبدو أن جميع المشاكل التي كنت قد واجهتها مع الاستخبارات والمحاكم والأمن العامة لم تكفني، والآن أسعى قُصارى جهدي إلى إيجاد مشاكل أخرى كي أستمر في دوامة صراعات الحياة، لذا توجهت مباشرة قاصدًا رئيس قسم (رقابة شعبية) الذي رحَّب بي، سلمته حكاياتي، اطلع عليها فورًا وأعجبته، أخذها ووعدني بنشر إحداها في عدد كل أسبوع... كنت مغتبطًا جدًا وأنا أنتظر كل أسبوع لأقرأ بفرح غامر عمود حكايتي في مجلة ألف باء يطرزه اسمي المكتوب تحته حتى يقرأها الآلاف من العراقيين.

ضمن سياسة القسم والتي تُساير سياسة الدولة كانت إدارة القسم تقوم بحذف العبارات الحادة المفصلية في نهاية كل حكاية، والتي تشكِّل زبدة وخلاصة الموضوع، وأهم وأبلغ ما فيها وتفقدها جوهرها، رغم الانكسار النفسي الذي أحدثه عدم نشر مقالتي الرئيسية، إلا أني واصلت زياراتي إلى وزارة الثقافة

والإعلام بشكلٍ دوري، وكذلك نشر حكاياتي النقدية في هذه المجلة في العديد من إصداراتها، حتى حدث شيء لم يكن في الحسبان.

عكفتُ على قراءة رواية هذه السيدة الفاتنة والتي لم تسمح بأي فرصة ممكنة لصديقي في كسب ودها، إذ أن عواطفها كانت قد تجمدت إثر رحيل زوجها، بنهم غير اعتيادي أجهزتُ على الرواية بكاملها حتى وردني إحساس رائع أن أكتب رأيي في الرواية على شكل ملخص بفقرات، ما أن جاء صديقي مساء أحد الأيام الصيفية الحارة حتى وضعت بين يديه ورقة بملخص رأيي في الرواية ، اطلع صديقي على الملخص بتأني بالغ ثم أعاد قراءته، حينها عدل من جلسته بعد أن نشر ابتسامة عريضة على وجهه، رفع نظاراته عن عينيه اللتين أخذتا تبرقان غبطة ووضعها فوق جبهته وقال:

– لقد قرأت لتوي نقدًا جريئًا رائعًا لهذه القصة وكأنه لناقد محترف، يبدو أنك ناقد متمرس يا صديقي، وإني لمعجب جدًا بتسلسل أفكارك وتشخيصك لنقاط قوتها وضعفها، كيف استطعت اختزال أفكارك بهذه السطور القليلة، إنك لماهر جدًا في هذا المجال، في الوقت الذي لم تستهوني هذه الرواية بالمرة.

أحد الأيام الربيعية الرائعة دخلت إلى استعلامات الوزارة، وكعادتي أظهرت هويتي العسكرية إلى الموظفة المسؤولة وكانت شابة في مقتبل العمر، لم أرها سابقًا ولم أعرفها، ولكن يبدو أنها كانت قد لاحظت تكرار زياراتي للوزارة، استوقفتني وأسقطت في أذني كلمات هادئة وكأنها تعرفني دهرًا:

– هل لديك هوية شخصية أخرى غير هذه العسكرية، والتي تظهر أنك برتبة عقيد في الجيش؟

صدمتني المفاجأة وعقدت لساني ولم أفهم كيف تجرؤ مثل هذه الفتاة الشابة أن تقول لي مثل هذه الأشياء الشخصية، ألا تعجبها هويتي العسكرية؟ ألا تستهويها رتبتي العسكرية؟... أسئلة كثيرة دارت في رأسي وأنا أنظر إليها دون عطف أو مودة قائلاً:

– لماذا تسأليني هذا السؤال، لا أفهم قصدك يا آنستي؟

اقتربت مني الشابة الجميلة جدًا حتى أصبحتُ أحس بنسمات شهيقها وزفيرها، المعطران بعبق عطر قوامها الرشيق الطاغي الذي يخلب لُبُ أي فحل، وبصوتها الطرب الخفيض أسقطت كلماتها في أذني:

– عزيزي الضابط كنت أتمنى لو أعطيتني هوية أخرى غير هذه، هل لديك؟

في بادئ الأمر خطر على بالي أنها قد تحاول كسب ودي أو إغرائي، ولذا لم أتركها تنهي حرف كلمتها الأخيرة حتى انقضضتُ عليها بسؤالي التالي:

– ماذا؟

كان ذلك بطريقة أكثر مرونة، ولكن إثر كلامها المثير وتحت إصرارها قلت:

– نعم لدي هوية نقابة المهندسين ونادي ضباط القوة الجوية وأخرى غيرها، ولكني أسألك لماذا كل هذه الأسئلة بحق السماء؟

ابتسمت حتى لمع ثغرها الممتلئ وانفرجت شفتاها اللماعتين الشهيتين، توردت خداها ونثرت منهما رطب الورد، إذ أنّ جمالها كان يؤنس وحشة روح أي مُعذب، كان ثمة هالة سحرية تحيط بها وقالت:

– كنت أود النصح وأقول إن هويتك هذه تجعلني أدرج اسمك في سجل خاص يذهب مباشرة إلى رئاسة الجمهورية يوميًا.

كنت واقف قبالتها والدهشة والشهوة يأكلاني سويًا وأضافت:

– ولكن إن أعطيتني هوية أخرى فإن اسمك سيكتب في سجل آخر لا يذهب إلى رئاسة الجمهورية، ولك القرار في ذلك.

صعقتني كلماتها القليلة والكبيرة بمعانيها، أعجبتني جرأتها وهي لا تعرفني من أكون، كيف لشابة مثلها الإقدام على محاولة كهذه دون التفكير في عواقبها، لاسيما ونحن نعيش في ظل نظام حديدي قاس لا يرحم، لفتني الصدمة بالكامل وتوقف عقلي عن التفكير، كأنها ضربتني على رأسي بمطرقة كبيرة، لحظات

حتى استعدت وعي وقدرتي على التفكير والنطق حتى قلت لها وعيوني خجلى تعكس شعاعات الاعتذار الشديد وقلت لها:

– شكرًا لك يا آنستي على تنبيهك وتحذيرك، أنت إنسانة رائعة، فألف شكر وليباركك الله ويحفظك من كل مكروه.

أعطيتها هويتي الصادرة من نقابة المهندسين ودخلت إلى الوزارة، على عجل سلمت حكاياتي إلى قسم رقابة شعبية وخرجت، وكانت هذه أخر حكاياتي وأخر مرة تطأ أقدامي أبواب وزارة الثقافة والإعلام وإلى الأبد.

لم يكن النظام القائم في العراق نظام ديني بأي حال من الأحوال، إذ كان يستند على أسس علمانية واضحة الدين ليس أساسها، كان النظام قد أحكم قبضته على النظام السياسي وحجب أية مشاركات سياسية أو نقابية لأحزاب أو تنظيمات أخرى، كما منع تواجد أي تنظيم سياسي خارج حزب البعث في العديد من أجهزة الدولة الحيوية على رأسها الجيش والتربية والثقافة والإعلام والأمن والاستخبارات وغيرها، وبذلك أصبحت أجهزة الدولة بأكملها خاضعة بشكل كامل لسلطة الدولة ومنظومة الحزب الحاكم.

لا بد من المرور على موضوع الحملة الإيمانية التي قادها الرئيس صدام آنذاك، وأقول رغم قساوة النظام السياسي في عهد الحاكم المطلق ومنظومته الأمنية الحديدية إلا أنه كان نظام علماني من خلال الأنظمة وقوانين الأحوال المدنية المعمول بها، والتي كانت بعيدة عن التعصب الديني.

استنادًا إلى المبادئ التي اعتمدها نظام الحكم؛ فقد كان في فترته الأولى حاميًا للأقليات الدينية من أية تهديدات أو مضايقات، ومُؤمنًا لحقوقهم المدنية حتى وإن كانت بالحد الأدنى، لكن وبعد ضعف سلطة النظام الحاكم والحكومة إثر الحرب عام ١٩٩١، اتخذ النظام كافة الوسائل لغرض تثبيت أركان حكمه وتقويتها، لذا أطلق بما يُسمى (الحملة الإيمانية) والتي كان ظاهرها ديني وباطنها سياسي والغرض منها إعلامي أكثر من ما هو مبدئي أو ديني، إذ سعى النظام إلى

إظهار سلوك ديني غرضه كسب التعاطف الديني للشعب، وهذا ما قاد التيار الديني للصعود إلى واجهة الأحداث بحيث أصبحنا نسمع من خلال مكبرات الصوت في بعض الجوامع والمساجد نداءات تحريضية معادية للأقليات الدينية بصوت الخطباء، تدعو إلى تكفيرهم وعدم قبولهم، في ظل صمت مطبق من قبل السلطات التي لم تكن سابقًا ترضى على مثل هذه التجاوزات إطلاقًا، وفي ظل هذه الحملة أخذنا نسمع بخروج المجرمين من السجون إن قاموا بحفظ عدد من الآيات القرآنية.

obeikan.com